

قراءة نقدية لنظرية جان جاك روسو التربوية

د.النوي بالطاهر - جامعة الوادي - الجزائر

أ. عاتكة غرغوط - جامعة الوادي - الجزائر

ملخص :

يتضح أن آراء جان جاك روسو وكتاباتة فيها الكثير من الافكار التربوية التي تعتمد عليها وتتادي بها التربية الحديثة والمعاصرة، كما انها كانت تشكل اعظم القيم التربوية في عصره بل انها تعتبر اساسا لحركات اجتماعية ونفسية وعلمية في التربية جاءت بعده ، على الرغم من ان في مضامينها الكثير من المبالغة والتطرف، وخاصة في مناداته بالحرية المطلقة والمبالغة في التعامل مع ميول المتعلم وحاجاته ورغباته، وكذا حرمانه المرأة من التعليم.

الكلمات المفتاحية: نقد ، تربية ، نظرية تربوية.

Critical Reading for the Educational Theory of Jean-Jacques Rousseau

Abstract:

It is clear that the views of Jean-Jacques Rousseau and his writings includes a lot of educational ideas that the modern and contemporary education depends on them ,besides they formed the greatest educational values of his time .Also,they considered basically as social, psychological and scientific movements in education which came after him .Despite their contents have a lot of exaggeration and extremism, especially in asking for freedom and exaggeration in dealing with the learner tendency and his needs and desires , as well as depriving women from education

Key words: criticism, education, educational theory

مقدمة:

لقد تخلف العالم الاسلامي، وبالمقابل خطا الغرب خطوات كبيرة في عصر النهضة الاوروبية، فيما يخص مسائل عديدة، نتيجة اتصالحهم بالمشرق الاسلامي عن طريق الاندلس والحروب الصليبية والتجارة والكتب المترجمة باللاتينية.

وفي الحقيقة ان عصر النهضة كان بداية للبحث الحضاري الاوربي، وفيه ظهرت النزعة الانسانية أي الاهتمام بالإنسان كإنسان يعيش في الحياة الدنيا، فلا يصحى بأولاه في سبيل اخره، فكان هذا الاتجاه ثورة على ما ساد في العصور الوسطى، مضحيا بالحياة الدنيا في سبيل الحياة الاخرة، ولقد ساد على اثر ذلك الامل والتفاؤل واحتل الانسان منزلة في هذه الدنيا.

ولقد انعكس ذلك في التربية فاصبح الانسان محور الدراسة التي تقوم عليها التربية، ومن ثم اهتم بالإنسان ودراسته، كما واكب ذلك حركة احياء الفنون والآداب القديمة كنقطة انطلاق لهذه الحركة الانسانية، وهي آداب الاغريق والرومان، ولكنها ضاعت حينما افتقد المولعون بها مغزاها وتحولت الدراسة بذلك على ايديهم الى لفظية بيغائية مقطوعة الصلة بالحياة، وكان طبيعيا ان يتلو ذلك حركة احياء اخرى عبرت عن نفسها فيما سمي بالحركة الطبيعية في اواخر عصر النهضة، تلك الحركة التي ظهرت منذ القرن السابع عشر واستمرت حتى بداية القرن العشرين.

وكان طبيعيا ان تنعكس هذه الحركة (الحركة الطبيعية) في التربية وتمثل ثورة في التربية على كل ما سبقها، مثلما مثلت ثورة اجتماعية اقتصادية سياسية، فاهتمت بميول الطفل وبفطرته الخيرة، وبالهام الطبيعية، ولقد انطلقت هذه الحركة من نداءات وعبارات جان جاك روسو (Jean Jacques Rousseau)، الفيلسوف الثائر والمفكر المتمرّد والمطلق لمبادئ الحرية في تطرف، والمساواة في مثالية فاتقة. وفي مجال التربية، فقد كان روسو ذا اراء تربوية تركت تأثيرا قويا على الفكر التربوي الحديث والمعاصر، وان كان يشوبها الكثير من المبالغة.

وسنحاول من خلال مداخلتنا هذه ان نقف عند اراء روسو التربوية، مبرزين الجوانب المضيئة من هذه الافكار، وكذا الجوانب التي يعترها الشطط، مع انه يصعب الحديث عن هذا المفكر والفيلسوف، وفي ذات الوقت يطيب الحديث عنه لان فلسفته من اكثر الفلسفات التربوية تأثيرا في القرن الثامن عشر فقد كان روسو يملك قدرة عجيبة على وضع الافكار في القوالب الكلامية، ولذلك فقد انحصر عمله في منح الافكار التي سبقه اليها غيره قوة لم يستطيعوا منحها اياها، مما جعله واحدا من اعظم العوامل القوية في التاريخ، حتى لقد قال نابليون: «ان الثورة الفرنسية لم تكن ممكنة الحدوث لولا روسو» (1). وما فتى كانط يردد قوله المشهور: «اني اعتبر روسو نيوتن عصره لاكتشافه العنصر الاخلاقي، بوصفه المكون الرئيس للطبيعة الانسانية، مثلما اكتشف نيوتن المبدأ الذي ربط بين جميع قوانين الطبيعة الفيزيقية» (2).

ومما لا شك فيه ان الرجل قد احدث ثورة حقيقية في الفكر التربوي والسياسي في اوروبا في القرن الثامن عشر، وكانت ثورته هذه مؤسسة للفكر التربوي في التاريخ الحديث والمعاصر.

نبذة تاريخية:

ينتسب جان جاك روسو (Jean Jacques Rousseau) الى اسرة بروتستانتية من اصل فرنسي كانت تسكن جنيف، حرم من تربية امه فقد ماتت اثناء ولادته، وتربى لدى اقارب امه، وكانت حياته الاولى مزيجا من الفشل والطيش، وقد ارتكب في شبابه خطايا كبيرة، الا انه في فترات اخرى من حياته كان اسبه بالحكيم، كما تقلب على كل ظروف المغامرات وركب شتى الاخطار وامتهن شتى المهن، فكان صانعا وخداما ومربيا، واقام في بعض الحانات وعرف اياما شكا فيها غلاء الخبز عليه.

وفي وسط هذه الظروف البائسة، وهذه الذلة والمسكنة، تكونت نفس كلها حس مرهف وخيال واسع، فقد كان ذكي الحس ومرهف، وقد روى في اعترافاته انه كان يشعر تجاه بعض الاساءة الظالمة التي لقيها بغضب عنيف، وكان يظل طوال ليلته يتلوى على فراشه بسببها.

وقد كان انفعاليا اكثر منه عقليا لاسيما في شبابه، كما ذكر عن نفسه انه لم يكن يملك اية فكرة عن الاشياء، في الوقت الذي كان يعرف فيه كل العواطف والمشاعر، ولم يفكر في شيء تفكيراً بل احس كل شيء احساساً، ولهذا جاءت كتبه قطعاً ادبية اكثر منها نصوصاً فكرية، ولهذا السبب فقد كان له تأثير في التيارات الادبية ايضاً.

وقد استلهم روسو الطبيعة التي احبها منذ سن مبكرة، فكان متفائلاً ولم يتراجع امام ظروفه القاسية، ولم يهن ايمانه بالعناية الالهية، وبقي مؤمناً ان الانسان خير بطبعه لان الطبيعة خيرة.

وعرف عن روسو حماسه للحرية وحبته للفضائل الوطنية، وكان الكذب يحدث له ذعراً حقيقياً، وكان شعره بالعدالة سامياً فكان يبغض الجور والجائرين، ولعل تلك الحادثة التي حدثت له كانت سبباً لذلك، اذ كان في احدى المرات مسافراً على قدميه من باريس الى ليون، فدخل كوخ فلاح بائس ووجد فيه كما يجد الانسان في لوحة مصورة خلاصة مؤثرة لآلام الشعب وبؤسه.

وكان يعتني بالشعراء والمؤرخين والفلاسفة والاقدمين، ويدرس الرياضيات والفلك، ونجده في كتاب الاعترافات يقص علينا كيف كان يظل في غالب الاحيان من النافذة ليشهد خروج الاطفال من المدرسة، وليصغي الى احاديثهم، يسترق السمع ويختلس الملاحظات اختلاسا، ومن هنا جاء كتابه (اميل) في التربية، نتيجة ملاحظة وتدبر والهام، فكان اهم كتاب جمع فيه اراءه التربوية.

وقد اكد في مقدمة كتابه (اميل) ان التربية السائدة في عصره سيئة للغاية، ولذا فقد جاء بهذا النموذج الجديد كي يحقق تقدماً في سير التربية، وذلك لاعتماد هذه التربية على تفكير الكبار وما يريدونه ان يكون

على الطفل، يقول روسو: «ان الراشدين يتمسكون بما تمده التربية من معارف للبالغين، دون ان يأخذوا في اعتبارهم ما هم عليه الاطفال في حالة التعلم، ان الراشدين يبحثون دائما عن الرجل داخل الطفل، دون ان يفكروا في ما هو عليه في حالته الراهنة قبل ان يكون رجلا»(3).

واما الغرض من التربية عند روسو فهو: (تكوين انسان متكامل)، يكون على اتصال مباشر ووثيق بمشكلات الحياة ويعمل للتغلب عليها، اما وظيفتها فهي ازالة كل ما يعترض النهوض بالطبيعة الانسانية، وهذا يعني ان نوع التربية التي يريد بها روسو هي (التربية السلبية)، التي تمنع الاشياء التي تقف حائلا دون نموه، والامور التي تؤثر فيه تأثيرا سيئا، والبيئة التي تفسده من النواحي العقلية والجسمية والاجتماعية والخلقية(4).

ولم يقصد روسو بالتربية السلبية ان ينفي ضرورة التربية، بل رعى الى القول بوجود وجود تربية تختلف كل الاختلاف عن التربية التي كانت شائعة في زمانه، فلقد كان المفهوم السائد عن الطبيعة الانسانية عامة وطبيعة الطفل خاصة المتفق مع التعاليم الدينية والتربوية في ذلك الحين، يخالف مفهوم روسو مخالفة تامة، لقد كان المتفق عليه ان طبيعة الانسان شريرة في الاصل، وان غاية الدين والتربية هو القضاء على الطبيعة الاصلية واستبدالها بأخرى يصوغها المرئي، الا ان روسو خالف هذه الفكرة بالمبدأ التالي: يجب ان تكون التربية الاولى سلبية محضة، تنحصر لا في تعليم مبادئ الفضيلة والحقيقة، بل في تجنب القلب مزلق الاثم، والنفس مهاوي الزلل، فالتربية السيئة التي يكون مصدرها الانسان - حسب روسو - لا بد من تعديلها عن طريق الاحتكاك بالحيوانات والنباتات وحوادث الطبيعة وقواها احتكاكا مخلصا، ولقد كان روسو يعشق الطبيعة، ففيها قدرة الخالق وعظمته وهذه حقيقة لا يجهلها عاقل.

والهدف النهائي من التربية - حسب روسو - هو تحقيق نظام اجتماعي تسوده المبادئ والفضائل المتمثلة في البساطة، والحرية، والاخاء والمساواة، ويدركها اعضاء المجتمع كافة.. وفي ذلك يقول: «كل شيء جيد اذا ما جاء عن طريق الخالق، وكل شيء يفسد اذا ما مسته يد البشر». ذلك ان طبيعة الانسان خيرة في ذاتها، ولكن المجتمع هو الذي يفسدها، لأنه فاسد بطبيعته، والكلمات التالية تعتبر الاساس في اهداف روسو التربوية، اذ يقول: «ان الرب خلق كل شيء خلوا من كل عيب، ولكن الانسان وحده هو الذي لطمه»(5).

ان كتاب (اميل)(Emile) لجان جاك روسو، والذي يسمى بـ **انجيل التربية**، فيه دون اراءه التربوية وكيف ينبغي ان يربى الطفل منذ ولادته وحتى يبلغ العشرين عاما، وقد تالف هذا الكتاب من خمسة اجزاء، تضمنت اجزائه الاربعة نوع التربية التي ارادها لإميل، في حين خصص الجزء الخامس منه لتربية المرأة التي ستكون زوجا لإميل.

وهناك رواية تقول بان سيدة طلبت من روسو - بحكم اهتمامه بشؤون التربية وقضايا التعليم في عصره - ان يزودها ببعض التوجيهات والنصائح التربوية التي قد تعينها في تربية ابنها المسمى (اميل) فاهتدى روسو الى فكرة تأليف كتابه (اميل).

تحليل مضمون كتاب (اميل) من حيث البنية التربوية السيكولوجية:

يقع الكتاب في خمسة اجزاء، هي:

الجزء الاول: وتبدأ هذه المرحلة التربوية من الميلاد وتنتهي في نهاية السنة الخامسة:

وفيها يرى ان يترك الطفل في الطبيعة (الريف) لينشأ تلقائياً، ولا يتدخل في تربيته احد، وسوف تتولى الطبيعة بما فيها من اشياء تربيته من خلال احتكاكه بها، ويطلق عليها روسو تربية الاشياء (Education des choses)، وهذه هي التربية الطبيعية، وهي التي يراعى فيها ميول الطفل الطبيعية، وهذه هي الوسيلة لتثنيته لكي يكون رجلاً عند الحاجة، فيترك في المناطق الباردة المغطاة بالثلوج او في المناطق الحارة اذا اضطره الامر، كما ثار على القيود التي تعطل الدورة الدموية مثل القماط لأنها تمنعه من النمو، وتسبب مضايقة في طبعه فيبكي ويتألم.

وفي الحقيقة، لا يستقيم البحث في نظرية جان جاك روسو التربوية ولا سيما في التربية الطبيعية دون العودة الى مفهوم الطبيعة، لان تحديد هذا المفهوم يشكل حجر الزاوية في فهم معمق لأبعاد اتجاهات نظرية روسو الطبيعية في التربية.

يحدد روسو ثلاثة تجليات لمفهوم الطبيعة، يأخذ الاول منها صورة الكون او العالم الخارجي على نحو ما يتبدى لنا بصورة موضوعية، فالطبيعة وفقاً لهذا التصور هي تقاطعات كونية في دائرتي الزمان والمكان، فالأرض وما عليها من بشر وشجر وحجر، والسماء وما فيها من نجوم وكواكب تشكلان الحدود القصوى لمفهوم الطبيعة بصورته الشمولية عند روسو.

ويتجلى المفهوم الثاني للطبيعة عند روسو في العالم الداخلي عند الانسان، فغرائزنا وميولنا الاصلية، وما فطرنا عليه من قوى داخلية منحتنا اياها الطبيعة، يمثل مفهوم الطبيعة الانسانية، وهذه الطبيعة خيرة بكل ما تتطوي عليه من غرائز وميول وقوى داخلية، لأنها صناعة كونية الهية وليست من صنع الانسان، وفي هذا يقول: «أن الرب خلق كل شيء خلوا من كل عيب، ولكن الانسان وحده هو الذي لطمه» (6). ذلك ان طبيعة الانسان خيرة في ذاتها، ولكن المجتمع هو الذي يفسدها لأنه فاسد بطبيعته.

واما التصور الثالث للطبيعة، فيتحدد بالطبيعة الاجتماعية للوجود البشري، لقد كان روسو يعتقد بان الانسانية كانت تعيش في العهود الغابرة حياة طبيعية سابقة للحضارة والثقافة، وهي الحالة الطبيعية، وكان الناس في حالتهم الطبيعية الاجتماعية - كما يصورهم في كتابه (مقالة في العلوم والفنون) - يعيشون حالة

انسانية تتميز بأصالتها وسموها وعظمتها، إذ كانت حياتهم تخلو من الحقد والحسد والكرهية، انها حياة امنة يتقانى فيها الانسان في خدمة الانسان، ويضحى فيها الفرد من اجل الاخر والجماعة، في هذه الحالة الطبيعية كان افراد الجماعة الانسانية يعيشون دونما اكرام اجتماعي، الناس يأكلون ما يجمعون، ويعيشون في ظل سمو اخلاقي يفيض عليهم بكل معاني المحبة والتسامح، التي كانت قانونا كليا يحكم الوجود الانساني برمته، الا انه ومع ظهور الملكية الخاصة للأرض مع تدجين الحيوان مع اللحظة التي بدأ فيها الانسان يقول لأخيه الانسان هذه لي وهذا لك، بدأت مرحلة الطمع والجشع والفرع، وبدأ الصراع الانساني نحو مزيد من السيطرة والتسلط والاستبداد، وظهر الحاكم القوي الذي فرض قوته على الجماعة، وتحول الانسان الى عبد لأخيه الانسان، فظهرت المظالم والشقاء وامتد البؤس الانساني ليضع الناس جميعا في حالة استلاب واعتراب، فالحالة الطبيعية الاجتماعية هنا، قد انتهكت وفقدت عزيمتها وأصالتها ونقاء انتمائها وصفاء وجودها، لقد انتهكت الطبيعة الانسانية وندست طهارتها مع ولادة الثقافة والملكية وصولا الطغاة من حكام، وهذه الافكار الطبيعية تجد مدها في كتاب روسو (مقالة في اصل التفاوت بين البشر) (7)، حيث يبين كيف تطورت الانسانية من حالة الطهارة والحرية الى حالة العبودية والقهر.

هنا، نمو الطفل اميل بعيدا عن المجتمع اعتقادا منه ان الطبيعة خير مربي، فالطفل اجتماعي بطبعه وعندما نزلته عن المجتمع فانه بعد عودته يعاني من مشكلات توافقية بينه وبين نفسه من جهة، وتكيفية بينه وبين المجتمع في اطار عملية التفاعل الاجتماعي في مجريات الحياة اليومية.

ويرى روسو ان الطفل يمكنه ان يتغذى على لبن مرضع بديل للام او على لبن حيوان، ومع ذلك فان الام لا يعوضها شيء عند روسو، ولذلك فهو يرى ان الام والاب هما مصدر التربية الحقيقية الاول للطفل، على الا تعالي في العناية به او تدليله حتى ينشأ قادرا على مواجهة صعوبات الحياة، وبعد الاب والام يأتي دور المعلم الذي يربي الطفل على واجبات الكبار، ولذلك فيجب ان يكون هذا المعلم حكيما. وفي هذه السن يجب تشجيع الطفل على استقلال ما وهبته الطبيعة من قوى، ثم تكون المساعدة مقصورة على الضروري، بحيث لا يتجاوز المعقول، فمع وان روسو ينادي بترك الحرية للطفل، فانه يرى ان يشجع على العمل بنفسه (الاستقلال الذاتي) (8)، ولا يجب ان يتعلم الطفل من الكلام ما لا يفهمه.

لقد انعكس التناقض الذي ساد حياة روسو على كتاباته، ولذلك جاءت كتاباته التربوية في اميل غير منطقية، فهو يفرض على اميل ان ينزل في الطبيعة ولكنه ينسى هذه العزلة ويبعث به مع زملائه الى المسرح والمباريات الرياضية بصحة المربي.

ان مغالاة روسو بجعله اميل ابنا للطبيعة وربطه بمقتضياتها، بهذا يكون قد قربه من الانسان المتوحش وادناه من الحيوان، وذلك حين توخى تعليمه الخشونة في هذه المرحلة الاولى من العمر، التي لا يقدر الطفل فيها الحفاظ على نفسه وحمايتها من الاخطار التي قد تلحق به في الطبيعة، وتأكيد على ضرورة ترك الطفل بعيدا عن المجتمع ومؤثراته مسألة غير واقعية وتجانب طبيعة الانسان الاجتماعية، وامكانياته العقلية، واللغوية، والانفعالية، والنفسية.

وهنا تلقى روسو سابحا في بحر الخيال ف اميل ذلك الفتى الذي نشأ في العزلة بعيدا عن الاسرة والاصدقاء محكوم عليه بحكم هذه الحياة ان يكون انانيا، ولن تجدي معه كل محاولات روسو التي يحاول بها ان يغمر قلبه بشيء من الدفاء، وان يشيع فيه بعض الحرارة، اذ لا سبيل الى بناء عواطف المحبة الطرية في نفس الطفل الا بغمره منذ الصغر في وسط اسري اجتماعي، هو وحده القادر على ان يفسح لعواطفه مجالا تنمو فيه.

الجزء الثاني: من نهاية الخامسة الى نهاية الثانية عشر:

وما يزال روسو في هذه المرحلة يؤكد على الامرين السابقين، وهما سلبية المربي الذي يعهد اليه بتربية الطفل، والاعتماد على الطبيعة في هذه التربية بعيدا عن المجتمع لكي يعلم الطفل نفسه بنفسه، بقدر ما يستطيع وفي هذه المرحلة يجب الا يتعلم ان يميز بين الفضيلة والرذيلة، ولكن التربية الطبيعية تنصب على حفظ القلب من الاخطاء، والبيئة هي المحيط الذي يتلقى منه الطفل بعض الدروس بطريقة غير مباشرة، وبعد ذلك يستطيع ان يفرق بين الحق والباطل بأسلوب عملي.

ويجب الابتعاد عن تعليم الطفل اشياء لا يفهمها، وان يربى تربية جسمية صحيحة في هذه الفترة، ويتطلب ذلك ان يكثر من النشاط، وان يدرّب على تحمل قسوة الجو، والا ينام في فراش فاخر، وعلى راي المثل : (اخشوشنوا فان الحضارة لا تدوم)، وان يدرّب تدريبات رياضية عنيفة، ويدير على عادات صعبة، كما يجب الاهتمام بتربية حواسه، وان يعلم وفقا لعمره وطاقته، وان يترك ليكتشف الحقائق بنفسه ولنفسه.

والتربية الحقة - حسب روسو - تتم عن طريق الخبرة والممارسة اكثر منها عن طريق الحفظ والتلقين، بالانتقال من المحسوس الى المجرد المعنوي، نعلم الطفل الصبر والاعتماد على النفس وتحمل الالم، وربط التربية بحاجات الطفل ومعاملته في حدود سنه، عدم اذلاله وعدم تدليله وكبت حريته ورغباته.

ان الشغل الشاغل لروسو ان يدرّب حواس تلميذه وينميها، ونجد لديه كل البذور الاولية لدروس الاشياء، بل لكل المبالغات التي تقع عليها اليوم فيما يعرف بالطريقة الحسية، ذلك انه من الخطأ التضحية بكل شيء في سبيل هذه التربية الحسية، وهنا يمكن ان نتساءل: لماذا لا نلجأ مع الطفل الى الدليل والبرهان واعمال العقل؟

ويرى روسو في الحالة الطبيعية مثله الاعلى وينفر من المجتمع ومن العلاقات فيه، ومنها وفيها يتعلم جزاء عمله، والحالة الطبيعية التي بني على اساسها تربية اميل هي حالة خيرية، تصور روسو ان الناس عاشوها قبل انخراطهم في الحياة الاجتماعية، وقد اثبت علماء الاجتماع خطأ تلك الفكرة وانكرتها الاديان السماوية.

وعندما يعود الطفل - حسب روسو - الى المجتمع يعود بخبرة تؤهله للعيش في سلام وونام، ومهما حاول المجتمع افساده لا يستطيع، معتمدا على الخبرة بدل التلقين، لكن لا يمكن باي حال من الاحوال اهمال الارشاد والتوجيه.

الجزء الثالث: من الثانية عشرة الى الخامسة عشرة:

ويركز في هذه المرحلة على تربية العقل وهي مرحلة البلوغ، وينظر اليها على انها مرحلة العمل والتعليم العقلي، فهو ان تعلم فليتعلم قليلا ولكن بإتقان، وهو يؤكد ان تلك المرحلة تتم ايضا عن طريق الطبيعة، وفيها تكون وظيفة المربي التوجيه الى ابعد حد دون الاستطلاع عند الطفل نحو المعرفة، فيوجه انتباهه الى ظواهر الطبيعة، فالطبيعة ما زالت هي كتاب الطفل، وحقائقها هي موضوعات التعليم، ولذلك فان روسو يذكر علوما طبيعية ورياضية، يتعلمها الطفل في هذه المرحلة عن طريق الطبيعة، وهي الجغرافية والفلك والجبر، فعن طريق الملاحظة سوف يضعه الموقف امام مشكلات فكرية، ويتركه المعلم ليحاول حلها بنفسه، حتى يستطيع فهم الحقائق التي يعرفها بنفسه لا ان يتلقاها عن طريق المعلم، وعلى ذلك لا يجب ان يعلم اميل مبادئ العلوم، بل عليه ان يتعرف عليها بنفسه، وبهذا يكون قد أخذ قسطا وافيا من التربية البدنية في المراحل السابقة والتربية العقلية في هذه المرحلة.

واما النحو واللغات القديمة والتاريخ فليس لها مكان في منهج تعليم اميل، ويستبعد الكتب تماما، وفي هذا يقول: « انني أمقت الكتب، فهي لا تعلم المرء الا التحدث عما لا يعلم» (9)، غير ان ثمة كتابا واحدا قد نال رضاه، وهو كتاب روينسون كروزو (Robinson Crusoe) الذي كان بمثابة كتاب في التربية الطبيعية (10). هذا الكتاب الذي يحمل شكل القصة، والذي هو ككتاب اميل رسالة في التربية الطبيعية، وبين اميل وروينسون اوجه شبه كبيرة، فكلاهما يكتفي بذاته ويستغني عن المجتمع. هنا أهمل روسو القيم الاخلاقية في هذه المرحلة العمرية الحرجة والحساسة من عمر الانسان (المراهقة)، فمن دون شك ان المراهق بحاجة الى مجموعة من القيم والضوابط الاخلاقية التي تساعد على ان يعيش هذه المرحلة بصورة سوية (مراهقة متكيفة) ويتجاوزها بسلام.

والغريب، انه على هذا الحيوان القوي الذي يدعى اميل، بعد ان قضى اثنتي عشرة سنة في التربية السلبية - كما يسميها روسو - ان يغدو في سنوات ثلاث ذهنا مشرقا وذكاء لامعا، ومن هنا ندرك ان الزمن يخون روسو وان المسافة قصيرة، وان روسو لا يوجد للثقافة الا بزمن ضئيل، وندرك ايضا ان اميل لم يهيا للدراسات السريعة التي سيفرضها عليه، اذ لم يعتد في سنواته الاولى على التفكير، وعاش حياة جسدية كلها، فلا بد ان يلقي الكثير من العناء في ان يقضي خلال اشهر قليلة على ما تردت فيه ملكاته العقلية من ذبول.

وتقتصر الدراسات التي يوصي بها روسو فتاه على العلوم الطبيعية، وعلى رأسها الفلك ثم الجغرافيا، التي لا تدرس عن طريق الخارطات بل عن طريق الاسفار، وهنا ايضا نرى روسو شانه دوما يفضل ما هو خبير وان كان مستحيلا على ما هو ادنى، وان كان وحده ممكن للتطبيق، ثم انه لا يريد ان يغدو تلميذه (لجة

علم) كتمليذ رابليه ويقول: «عندما ارى انسانا شغف بحب المعارف فأخذته ففنتها وطفق يعدو من احداها الى الاخرى دون ان يعرف الوقوف، يخيل الي اني امام طفل على شاطئ يلتقط قواقع ويحاول ان يحملها، غير انه يفتن بأخرى غيرها يراها، فيقذف بالأولى ويأخذ هذه وهكذا الى ان تعييه كثرتها ويحتار ايها يختار، فيرمي بها كلها ويرجع بخفي حنين»(11).

الجزء الرابع: من الخامسة عشرة الى العشرين:

وفي هذه الفترة يؤكد روسو على التربية الدينية والخلقية والعاطفية، ومفادها ان يتلقى تربية تنمو بها علاقاته بالمجتمع وبالله، فلا خوف عليه الان من المجتمع بعد ان تحسن بمهارات عقلية يعرف بها الحقائق، والتربية الخلقية والدينية هذه لا تكون بالنصح والارشاد، ولكنه يمتصها عن طريق الاقتداء بأبطال التاريخ.

وتبدأ تربيته الدينية في هذه المرحلة، لان قدرته على تكوين صلة بينه وبين ربه، وفهمه لأمر الدين تكون في سن الخامسة عشرة، اما اذا سبق تعليم الدين هذه السن، فانه سيبقى طفلة حياته يعرف الدين معرفة تقليدية لا تعدو ان تكون ألفاظا تردد بدون معنى.

وبخصوص التربية الدينية دائما، ينصح روسو بعدم تلقين العقائد الدينية في الطفولة، والا تبدأ دراسة الدين الا بين (15 و 20 سنة)، وذلك من ملاحظة الطبيعة(12). وفي هذه المرحلة يمكن ان يتذوق الانسان القراءة والفن.

الاسباب التي تدفع روسو الى ارجاء الحديث عن الامور الدينية حتى سن السادسة عشرة او الثامنة عشرة من الصعب ان نقره على ما يقول، افلا نخشى اولا اذا استغنى الطفل عن الله حتى سن الثامنة عشرة، اذ يجد من الطبيعي الاستغناء عنه بعد ذلك وان يشك بدلا من ان يعتقد، وهب انه وصل الى الايمان بعد هذه السن، اوليس من البديهي ان تكون الفكرة الدينية وقد غرست في زمن متأخر، واهية الجذور لديه؟ ثم ان الطفل فضولي بطبعه، فهل في وسعه ان ينتظر حتى هذه السنوات ليسأل عن عله الكون؟ أفلا يخلق لها على شاكلته وحسب هواه؟.

وهنا لا بد ان نتساءل عن الباعث التربوي الذي يتوجه به الى الطفل؟ وروسو في هذا الشأن في اكثر آرائه مطلق قاطع، ف(اميل) حتى الثانية عشرة يوجه عن طريق مبدأ الضرورة والاشياء هي التي تتحكم فيه لا الاشخاص، وهو يقاد عن طريق الممكن والمستحيل ولا يعامل معاملة كائن يحس ويعقل، بل معاملة قوة من قوى الطبيعة، يقاومها بغيرها ولا يعدل عن هذا المبدأ الا منذ الثانية عشرة، اذ يكتسب اميل حظا من الحكم والتمييز، ويصبح من الواجب ان نوجه سلوكه بدافع فكري هو مبدأ النافع، واذا بلغ الخامسة عشرة أمكن ان نتوجه الى قلبه وعاطفته، وان نظهر له الافعال التي نطلبها منه بمظهر الافعال النبيلة الطيبة والشريفة لا بمظهر الافعال الضرورية والنافعة .

والظاهر ان خطأ روسو هنا هو في تجزئته حياة الانسان حتى سن العشرين اجزاء اربعة قاطعة لا سبيل الى التواصل بينها، لكل منها قاعدة في السلوك خاصة، بينما من الطبيعي ان نستخدم في كل سن كل البواعث والدوافع التي تؤثر في الارادة والضرورة والمنفعة والعاطفة وفكرة الواجب اخيرا(وهي فكرة أهملها روسو)، كلها امور يمكن ان نهيب بها دوما وفي كل الاعمار بنسب متفاوتة طبعاً.

الجزء الخامس: تعليم البنات او المرأة:

بعد ان يصبح (اميل) رجلاً فهو في حاجة الى امرأة تتاسبه في سن العشرين.

فما هي مواصفات هذه المرأة ؟

يرى روسو ان المرأة ليست الا زوجة فقط وليس لها دور يذكر في حياة المجتمع غير ذلك، ولذلك فان تربيته لها يجب ان تؤهلها لإسعاد زوجها، وان تكمل شخصيته فحسب، ولذلك فقد عني بتربيتها جسمياً لكي تتمتع برشاقة جسمية وباكتمال صحي، وان تتعلم شؤون التدبير المنزلي، وان تتعلم كيف تربي أطفالها، وان تتزين لزوجها، وان تتقن الموسيقى لهذا الغرض، غرض اسعاد زوجها وامتاعه.

وعلى ذلك يجب ان تتعلم شؤون بيتها منذ الصغر، والا تتعلم علوما عقلية، لان ذلك خطر على اولادها وعلى زوجها وعلى طاعتها له، بل على كل من حولها حتى خدمها، فضلاً عن انها غير قادرة على استيعاب الاعمال العقلية في رأيه.

والملاحظ هنا انه عندما عزل روسو المرأة من الحياة التربوية قد جانب الصواب، فحينما ينظر لصوفيا على انها شخص ناقص لا يجب ان يربى لذاته تربية عقلية مثل الرجل، فانه بذلك قد تجاوز الخطوط الحمراء، بنطاوله وظلمه للمرأة، ومجافاته لطبيعة الأمور.

وعندما يعزل روسو المرأة من الحياة التربوية ويحرمها من التعليم فقد أخطأ، فالمرأة المتعلمة يمكنها ان تساهم في بناء المجتمع وتطويره، فهي بمثابة المدرسة، وصدق الشاعر حافظ ابراهيم حين قال: (الام مدرسة اذا اعدتها اعددت شعباً طيب الاعراق). ووراء كل رجل عظيم امرأة كما يقال، والمدة التي يقضيها الطفل مع امه اكثر بكثير من المدة التي يقضيها بعيداً عنها خاصة في مراحلها العمرية الاولى، فهي تشكله كما تشاء، فاذا كانت امية وجاهلة ففقد الشيء لا يعطيه.

وفي هذا السياق دائماً، يجدر القول ان روسو كان كلاسيكياً وعدوانياً في نظره الى المرأة، فوظيفتها كما يرى هي اسعاد الرجل وارضائه، والقيام بتربية الاطفال، فالمرأة المثقفة تكون وبالا على زوجها واطفالها وعائلتها وخدمها، وكثيراً ما يؤخذ على روسو هذا التحامل على المرأة والموقف المتوحش حيالها، لان اراءه متطرفة وعنصرية فيما يتعلق بدور المرأة، مع ان عبقريته وحياته كانت وليدة عناية انثوية خالصة، ولا يخفى على من يقرأ سيرة حياته انه كان مديناً للمرأة الام والصديقة والزوجة والعمة، التي كثيراً ما كان ينهمر دمه على عمته ومن عرف من النساء، وكانت لمسة الحنان الوحيدة في حياته هي لمسة المرأة، فصوفيا

في هذا الكتاب لا تمتلك الا على فضائل ثانوية، وهي الفضائل التي تتصل بالحياة الزوجية والاسرية، وهي كما يصورها روسو، شخص ناقص يحتل مرتبة دنيا في عالم اميل وحياته.

وفي الاخير اعتقد ان التربية السليمة، مرهونة بالمرأة او الام المتعلمة الواعية والمتقفة، وإذا انعدمت هذه المواصفات في المرأة انعدمت التربية، فالتربية الحقبة لصيقة ومتوقفة على وجود المرأة او الام ومكانتها في الاسرة والمجتمع.

خاتمة

سجل روسو نفسه في تاريخ الفكر مربيًا ومعلمًا وفيلسوفًا واديبًا وناظرًا، وكانت سيرته الحياتية والفكرية من اغرب السير التاريخية في تاريخ الفكر الانساني ان لم تكن اغربها على الاطلاق، ومن اوجه الغرابة والاندهاش في هذه السيرة اننا مع روسو نجد انفسنا امام عبقرية شمخت ونهضت على اعمدة القهر وعلى ثوابت الالم والمعاناة، وعلى هذا الاساس شيد مملكته الفكرية الفياضة بكل المعاني الانسانية النبيلة والخلافة، لقد احدث روسو انقلابا فكريا في عصره وفي العصور التي تتابعت بعده، ولا غرابة في ذلك فهو مؤسس التربية الحديثة وصاحب اكثر النظريات التربوية عبقرية وغرابة.

وليس غريبا ان احدث روسو ثورة تأخذ طابع الاستمرار في مجال التربية، لقد وضع حجر الزاوية لانقلاب فكري تربوي ثوري، اتى على كل التراث القديم في مجال التربية، وحدث انقلابا كوبرنيكيا في المفاهيم والرؤى والتصورات، وستبقى نظريته في التربية حجرا كريما يراقا في مسيرة الفكر الانساني الحر الى الابد.

ورغم هذه الجوانب المضيئة، الا انه يعاب على روسو، عزله الطفل عن المجتمع ورميه في احضان الطبيعة، الغاء دور التنشئة الاجتماعية بصورة كلية، وهل حقيقة ان الطفل في سن مبكرة يستطيع تحمل نتائج افعاله دونما ان يلحق بنفسه الضرر؟، ارجاع تنمية الصفات الخلقية والدينية الى سن متأخرة (15 - 20 سنة)، مما قد يؤدي الى عدم انجاح الفعل التربوي، وفوق هذا وذاك فالخطط التي وضعها روسو خيالية، اذ لم يوفق في وضع الوسائل والادوات العملية لتحقيق هذه الخطط.

وما يدهش ان علم النفس الحديث والنظريات التربوية الحديثة قد استجابت لانديفاعات روسو المتمردة ولم تستطع الانتقادات التي وجهها العلماء والمفكرون والكتاب لنظريته التربوية ان تتال من شموخ هذه النظرية، بل زادت شموخا وتمردا، صحيح ان مظاهر النظرية قد تبدو غريبة، ولكن جوهرها الانساني ما زال يحلق في الاجواء الشامخة.

والحق ان كتاب (اميل) رغم ما فيه من مبالغات ونطرف، الا اننا نجد فيه بذور التربية الحديثة، وحسبنا ان نذكر انه اول كتاب دافع عن سن الطفولة وميزه عن سن الرشد، ونادى بتربية ملائمة لأعمار الاطفال ولنموهم النفسي، واكد حرية الطفل ونادى بتحريره من الكبت والارهاق، وحرص على تشييد التربية انطلاقا

من طبيعة الطفل واهتماماته وميوله، وهو فوق هذا وذاك أكد على ضرورة تعليم الطفل نفسه بنفسه، وتلتقي هذه النظرة مع مبادئ التربية الذاتية الحديثة، كما تلتقي مع أحدث الاتجاهات التي أخذت تقلص دور المعلم التقليدي وتتحدى بإحداث تغيير جذري في ذلك الدور.

الهوامش:

- 1- فاخر عاقل(1981). التربية قديمها وحديثها. ط3. دار العلم للملايين. بيروت. لبنان. ص: 147.
- 2- بو منرو(1949). المرجع في تاريخ التربية. الجزء الثاني. ترجمة صالح عبد العزيز وحامد عبد القادر. مكتبة النهضة المصرية. ص: 229.
- 3- J.J.Rousseau(1969).Emile ou de L'éducation .Edition Gallimard :78
- 4-محمد عطية الابراشي(1951). جان جاك روسو وأراؤه في التربية والتعليم. دار احياء الكتب العربية. ص: 60.
- 5-Elmer Harison(1970). Wild and Kenneth V.Lottich : The Fondation of Modern Education.4th Ed.New york.Holt. Reinhard &Winston. p :301.
- 6-ibid.p :304.
- 7- جان جاك روسو(1956): أصل التفاوت بين البشر. ترجمة عادل زعيتير. دار المعارف. القاهرة.
- 8- محمود السيد سلطان(1979). مسيرة الفكر التربوي عبر التاريخ. دار المعارف. القاهرة. ص: 153.
- 9- عبد الله عبد الدائم(1984): التربية عبر التاريخ من العصور القديمة الى القرن العشرين. ط5. دار العلم للملايين. بيروت. لبنان.
- 10- علي أسعد وطفه: الثورة التربوية في فلسفة جان جاك روسو الطبيعية. جامعة الكويت.
- في الموقع: www.civicegypt.org/?p = 23125 - (20.00 - 2016/09/20)
- 11- عبد الله عبد الدائم(1984): مرجع سابق. ص: 387.
- 12- محمد عطية الابراشي(1951): مرجع سابق. ص: 288.